
المنظومة
ALMANDUMAH

أي منهاج لكتابة تاريخ المغرب؟

جرمان عياش

«إنني من الذين يعدون التاريخ علما من العلوم.
فالتاريخ كغيره من العلوم يلبي حرص الإنسان على المعرفة
لا للمعرفة نفسها، وإنما لاكتشاف أسرار الأمورحتى تسخر
الأشياء لصالح الإنسان عوضا أن تسيطر عليه...»
جرمان عياش

في التعريف بجرمان عياش :

أنا من عائلة يهودية مغربية كما يدل على ذلك اسمي، أنتمي الى قبيلة (آيت عياش) الموجودة في حوض ملوية، هاجرت عائلتي الى الجزائر، ربما في القرن *19*، لا أدري، ثم استقرت في تلمسان، بعد الحماية انتقل الوالد الى المغرب وبما أني ولدت في مدينة السعيدية ونشأت في مدينة بركان فأنا من عائلة مغربية أصلا ثم أصبحت هذه العائلة جزائرية. وفي سنة إحدى وسبعين من القرن الماضي منحت فرنسا الجنسية الفرنسية لجميع اليهود للتفريق بينهم وبين المسلمين في الجزائر، ولهذا ولدت بالجنسية الفرنسية. لقد انحصر معظم نشاطي في مدينة بركان ماعدا الدراسة التي كانت في تلمسان بداية ثم في وجدة التي اجتزت بها الباكلوريا (يونيو *1932*)، وبعدها انخرطت في الدراسات العليا بالمغرب، وبعدما أصبحت أستاذا مبرزا في الآداب الفرنسية واللاتينية واليونانية، تعينت أستاذا بالثانوي (ثانوية محمد الخامس الحالية أو ليسي ليوطي آنذاك). ثم تحولت من الآداب الى التاريخ حتى أكون مؤرخا للمغرب،

وحبا في تاريخ المغرب أصبحت مؤرخا. لقد شاركت كجندي في الحرب العالمية الثانية مدة أربع سنوات في فرنسا وألمانيا. وفي سنة 1950 ألقيت محاضرة في الرباط أمام يهود الرباط وسلا وتناولت فيها عدة قضايا تهم المغرب (... سيأتي يوم لن يكون المغرب خاضعا لأية قوة استعمارية، ولن توجد أية قوة تجبره على الخضوع للاستعمار، وأن الدول المستعمرة بدأت تستقل تباعا، وأن دور المغرب آت لا محالة ليصير دولة مستقلة ديمقراطية. إن النقاش بين المغاربة المسلمين واليهود ممكن وأن زعماء الامبريالية، هنا وفي جهات أخرى هم المستفيدون من إثارة العداء بين العنصرين لجعل البلد تحت قبضتهم. وبالتالي فإن اليهود المغاربة لا يتخوفون من أن يكون المغرب مستقلا وديمقراطيا، وليست لهم مصالح ليكونوا خدمة للمستعمرين...)، ومن أجل ذلك طردني المقيم العام الى فرنسا.

- عن الاهتمام بالوثائق وعمل المؤرخ يقول جرمان عياش :

اهتم كثيرا بالوثائق الموجودة في خزانة تطوان، لأن المؤرخين في جميع البلدان يهتمون بالوثائق الوطنية. وفي المغرب كانت الوثائق مهملة تماما، بل كان الكثير من المؤرخين يقولون أن هذه الوثائق لم يعد لها وجود. إن العمل الأولي الذي قمت به يتلخص في البحث والعثور على هذه الوثائق لاستخراجها من زاوية النسيان، وهذا تطلب مني مدة طويلة، لأن المغاربة أنفسهم كانوا يجهلون وجود هذه الوثائق. وبعد أن تمكنت من العثور على هذه الوثائق، جاءت المرحلة الثانية وهي القراءة، وهذا عمل ليس بالسهل. فمثلا عندما نأخذ الرسالة التي بعثت بها قبيلة أولاد سيدي الشيخ إلى السلطان مولاي عبد الرحمان - وهي قبيلة أصبحت اليوم من القبائل الجزائرية - يؤكد ممثلهم الولاء للسلطان ويرفع شكوى القبيلة لما عانته من طرف قبيلة مغربية أخرى هي قبيلة (الأنكاد) - ناحية وجدة - فالمؤرخ هنا ينبغي أن يحقق صحة الضرر الذي لحق قبيلة أولاد الشيخ، وعليه أن يلتمس ويبحث عن وجهة نظر (الأنكاد، ويقارن بين الرأيين، فوجود الخلاف بين القبيلتين لاشك فيه، كما أن ولاء (أولاد سيدي الشيخ) لمولاي عبد الرحمان لاشك فيه أيضا. وعلى كل حال فهناك قدر من المعلومات يمكن أن نعدها ثابتة، أما الباقي من المعلومات فينبغي أن يكون المؤرخ على حذر منها. وهذا هو جوهر عمل المؤرخ.

- عن تعلم اللغة العربية، ونشر الأبحاث يقول جرمان عياش:

تعلمت اللغة العربية في الكهولة، ربما لأني كنت أريد أن أعتمد على الوثائق المغربية، فكان لزاما علي أن أتعلم هذه اللغة. أما فيما يتعلق بالنشر فقد نشرت أبحاثي في شكل مقالات محدودة، وفي جوانب مختلفة، وهي في معظمها تتعلق بالقرن 19 اما في الاقتصاد أو في النظم المغربية، وفي جوانب مختلفة، وهذه المقالات جمعتها في كتاب عنوانه «دراسات في تاريخ المغرب».

- تعرض من حين لآخر اشرطة على أنها تسجيل لوقائع معركة انوال اي بداية حرب الريف ونحن نعلم انها اشرطة لم تصور إلا عند نهاية هذه الحرب، هذا إذن نوع من الوثائق المغلوطة حول حادثة قريبة منا فماذا يمكن ان يقال عن صحة الوثائق المتعلقة بأحداث الفترات السابقة، نستنتج من ذلك اننا لا نعلم شيئا عن الماضي؟

هذا إذا اهتممنا بالجانب الفرنسي أو الإسباني، فالجيشين معا يتوافران على صور عديدة تتعلق بالجيش عندهم، أما فيما يتعلق بالريفيين (الجيش الريفي - طريقة العيش آنذاك) فالوثائق المصورة غير موجودة، لأن حرب الريف لم تصور إلا من الجانب الفرنسي. فمثلا إذا اتجهت فرقة من الفرق الفرنسية الى الجبهة فإنها تعد الصور. لكن من الجهة الداخلية التي تهمنا قبل كل شيء، فإنا لا نتوفر على هذه الصور، ولهذا لابد لنا أن نستعمل ما أمكن وثائق أخرى.

- نخرج بالفكرة التالية : وهي اننا لا نعرف شيئا عن تاريخنا..

في ذلك شيء من المبالغة، فالقرن 19 قريب منا، ويمكن لنا أن نعرف هذا التاريخ. فنحن لا نجهل الكثير مما وقع، بل وهذا هو الخطير، نعتقد أننا نعرف كل شيء. ولكن هذا المعروف مشكوك فيه. فهو إما مزور، أو ناقص جدا. ففيما يتعلق بالقرن 19 نتوفر على مجموعة من الكتب إما مخطوطة أو مطبوعة لبعض الرواة كالناصري مثلا، لكن هذه الكتب لا تكفي لأن الراوي آنذاك لا يهتم بالتعمق في الأحداث، ولا يهتم إلا بما يخرق العادة، أما إذا كانت السنة بدون انهزام، وبدون مجاعة، وبدون وباء وبدون "حَرْكَة"... كانت سنة بدون

تاريخ. أما ما يهمنا اليوم كمؤرخين فهي الحياة العادية.

اهتم الأوربيون بتاريخ المغرب سواء قبل فرض الحماية، أو خلال الفترة الاستعمارية، وألفوا كتبا عديدة حول حياة وعادات المغاربة وانظمتهم.

- هناك بعض الكتب التي تروج في السوق، ويتهافت عليها الناس للتعرف على ماضي المغرب نذكر منها

- Au seuil du Maroc moderne لصاحبه ويزگيرر

- Le Maroc Disparu لصاحبه والتر هاريس وهو انجليزي عاش مدة طويلة في طنجة.

- Au temps des Mehallas ou Le Maroc de 1860 à 1912. لصاحبه لويس أرنود.

فهذه الكتب الثلاثة تروج أكثر في السوق وهي تعطينا صورة مشوهة جدا لأنها ناتجة إما عن كذب أو عن خلل. وقد كتبت حتى تباع في انجلترا وفي فرنسا وفي أوربا، وحتى يضحك الأوربيون عن المغاربة الذين هم شبه وحوش - حسب ما تصوره هذه الادعاءات - إن الصورة التي يمكن أن نستنبطها عن المغرب من خلال هذه الكتب هي أنه بلاد متأخرة وإذا كان هذا صحيحا، فإن وصف المغاربة بالوحوش يبقى ادعاء وافتراء.

- يعطي المؤرخ الأولوية عند كتابة التاريخ للوثيقة المكتوبة ويهتم كذلك، - وخصوصا عند غيابها - بالرواية الشفوية التي تمثل تقليدا راسخا في الثقافة المغربية.

فيما يتعلق بالرواية الشفوية لا اهملها كليا لكنني جربتها وشعرت بحدودها، وهي حدود ضيقة جدا، كما ينبغي أن نقول بأنها لا تفيد إلا فيما يتعلق بالأحداث القريبة منا والتي لا تكون أبعد بكثير من جيل واحد، الحرب الريفية تدخل في هذه الحدود، فلازال البعض من الذين شاركوا فيها على قيد الحياة، وقد أتيحت لي فرصة اللقاء بهم فسجلت ما قالوه لي من ذكرياتهم، ولاحظت ما فيها من الغموض، أو من الأخطاء. فكيف يمكن لي أن أحكم عن الخطأ؟ يتم ذلك بالمقارنة بين شهادتين تتعلقان بحدث واحد. ويعني ما قلته عن الرواية الشفوية أنها يجب أن لا تهمل إهمالا مطلقا، فكثير ما نكون مضطرين

الى الالتجاء اليها خصوصا عندما تنعدم الوثائق المكتوبة، ومن الأمثلة على ذلك المقاومة المغربية أثناء الاستعمار، فهي لم تخلف وثائق مكتوبة؛ إلا القليل لذا لابد من الاعتماد على ما تبقى في ذاكرة المشاركين في هذه المقاومة. وزيادة على ذلك فالرواية الشفوية تهم المؤرخ لا لكي يثبت الحوادث كما وقعت، وإنما للتعرف على الصورة التي كانت في أذهان الناس، إزاء هذه الأحداث، وأيضا رد فعل المعاصرين هو الأخر يهم المؤرخ، وهو أيضا عنصر من أهم عناصر الواقع الذي يصوره المؤرخ.

- قد يعتمد المؤرخ على الأعمال الأدبية والفنية رغم ما يغلب عليها من خيال.

إن الألياذة أو الأوديسية كآداب يونانية. فالكتاب الأول يروي الحرب ما بين اليونانيين وأهل إليون أو طروية والكتاب الثاني يروي مغامرات أحد أبطال اليونان وهو أوليسوس. فلا يمكن أن نقبل ما قاله الشاعر في هذا الكتاب أو ذاك، ونصدق بأنه وقع فعلا، لكن ما يقوله عن حياة الأبطال الذين يروي ويذكر أفعالهم، فهذه التفاصيل هي انعكاس للحياة التي كان يعيشها العالم آنذاك.

أما فيما يخص الرسوم الواردة في اللوحات الفنية فهي دقيقة في تفاصيلها ، تطلعنا على أدوات الفلاح، أدوات الحداد... الخ فهذه التفاصيل الدقيقة لاشك أن المبدع لم يخرجها من خياله، وإنما صورها أو رسمها كما لاحظها حوله. وبتعبير آخر فإن الأفعال التي ذكرها ، وقال بأن الأبطال قاموا بها في هذا الكتاب لا نقول أنها وقعت، لكن ما رسمه الفنان هو انعكاس صادق ووفي للحياة في تلك الأيام، فالمؤرخ يمكنه أن يستفيد من هذه المعلومات ويثق بها ، وليس ذلك فحسب بل هو يستفيد من كل ما حفظ أثرا من آثار الماضي، وكلما تقدمت التقنية لاكتشاف الأثر الخفيف في مخلفات الماضي كلما وسع المؤرخ ميدان إمكانياته.

أما عن الفرق بين كتابة التاريخ وكتابة الرواية، فإن كاتب الرواية يتحكم فيما يكتبه، أما في التاريخ فالأحداث هي التي تتحكم في المؤرخ، فعليه أن يحقق كل شيء، وكل جملة كتبها هي نتيجة بحث طويل.

- تبقى الوثائق المكتوبة محور المنهج التقليدي، فهل يخص هذا كتابة تاريخ المغرب فقط أم انه يصلح لكتابة التاريخ بصفة عامة؟

لا يمكن لنا أن نقول أن للمؤرخ طريقة مفروضة عليه فأمامه إمكانيات مختلفة، يتسع عددها بتقدم التقنيات، فعليه أن يستعمل هذه الوسيلة أو تلك تبعا للحالة المتعرض لها. فالرسام مثلا له العديد من الألوان يستعملها حسب اختياره، وحسب ما يريد رسمه. فالطريقة واحدة غير أن استعمال هذه الوسائل يختلف حسب اختلاف الموضوع. أما فيما يتعلق بالوثائق فالتعامل معها في حد ذاته طريقة تقليدية بالنسبة لجميع الدول التي كانت لها نظم ثابتة. وتستعمل الكتابة ، ونذكر هنا على الخصوص الدول الأوربية. أما بالنسبة للمغرب فهذه الطريقة جديدة، لماذا ؟ لأنها أهملت من لدن المؤرخين خصوصا ، الأجانب منهم لكونهم يجهلون استعمال اللغة العربية فابتعدوا عن الوثائق المخطوطة بالعربية، زيادة على أنهم كانوا أصحاب نيات سيئة فيما يتعلق بالمغرب.

- ماذا عن التجديد في كتابة التاريخ ؟

قديما كانت الوسائل التاريخية قليلة، والآن أصبحت متنوعة ومتعددة، فالمؤرخ يستعمل جميع الإمكانيات التى وفرتها له التقنيات المختلفة أما في التحليل الكيماوي للآثار الحفرية واستعمال الوسائل الجديدة التي يعطيها مثلا تقدم علم اللغة، لكن هذا لا يعني تجديدا بل يعني تقدما ، أي أن الوسائل الجديدة تضاف الى الوسائل القديمة، والآن يمكن لنا أن نستعمل نتائج العلوم الطبيعية المختلفة للحصول على بعض الحقائق التي كانت خارج دائرة تناولنا من قبل. فمثلا تأريخ الأحداث بواسطة (الكربون 14) ، هذه وسيلة كيماوية وكذلك اعتماد تحليل غصون الأشجار للتأريخ بدقة لما وقع من بعض الأحداث، فهذه وسائل جديدة كانت مجهولة، ويوميا تنبع بعض الوسائل الجديدة التي تمكننا من التدقيق في الحصول على ما اختفى، ومع ذلك ترك أثرا خفيفا لم يكن في متناولنا من قبل. فعلى المؤرخ أن يستفيد من هذه الوسائل بمقدار ما تظهر الى الوجود ، ولا نقول التجديد بل نقول تقدم إمكانيات المؤرخ.

- قد نتصور انه بالإمكان كتابة التاريخ الحالي كتابة موضوعية

شاملة، يستفيد منها مؤرخو المستقبل لكن تظل هناك بعض المشاكل وعلى راسها صعوبة معرفة معظم ما يجري خاصة وان اهم القرارات تتخذ بشكل غير علني.

لا يمكننا إدخال جميع الأحداث في التاريخ، المهم هو فهم ما وقع فإذا عثرنا على ما يكفي للفهم، انتهت مهمتنا كمؤرخين هذا فيما يتعلق بالماضي. أما خلال الحاضر فالملاحظ أن المعلومات تتوفر وتتكاثر وتدخر بمختلف الوسائل (الكتابة، الأفلام، الصور وما إلى ذلك...) ومع ذلك فلا يمكننا أن نتعرف على كل ما هو سري لكن هل هذه المعرفة ضرورية دائما ؟ وهل لا يكفي أن نسجل ما هو واضح عن نتائج القرارات وإن كانت سرية؟ وهل لا يمكننا أن نفهم الدوافع الكامنة وراء من قام بهذه الأفعال (الهجومات العسكرية مثلا...) ؟ وهل لا يكفي لفهم ذلك التعرف على النظم الاجتماعية والسياسية التي لها منطق والتي تدفع حتما الى اللجوء الى هذه الأفعال. طبعا ينبغي أن نصبر إما عشرة سنين أو عشرين سنة لتجاوز تسجيل ما هو مبين وما هو ظاهر، للحصول على هذه المناورات السرية التي سبقت هذه الأحداث.

- اهتم المؤرخ منذ القديم بالتعرف على احداث الماضي محاولا تدوين التاريخ وصياغته، وفي كل محاولاته يتخذ أهدافا محددة :

لو كان التاريخ دون فائدة لكنت اتجهت الى مهنة آخرى، لكنت جزارا أو حدادا، لأن هؤلاء يفيدون المجتمع، لكن أرى أن المؤرخ هو الآخر له ما يفيد به المجتمع. وبصفة عامة فالهدف العام من التاريخ هو اكتشاف نواميس تطور الإنسانية حتى يتمكن الإنسان من تسخير هذا التطور لفائدته ولا يبقى كما كان الى حد الآن، وحتى لا يبقى تحت سيطرة هذا التطور وبعض الأشياء المصاحبة له، فهناك بعض الكوارث منها : الحرب، البطالة، الجوع. فهذه الكوارث كانت ولازالت مفروضة على الانسانية، وباكتشاف أسبابها العميقة يمكننا في المستقبل الذي يبعد أو يقرب أن نخفف من حدة هذه الكوارث، ونقذ الإنسانية من ضررها. هذا هو الهدف العام. اما فيما يتعلق بهذا الشعب أو ذاك فمن المهم جدا أن يكون الشعب المغربي على بينة من ماضيه حتى يفهم كيف أدت الظروف الى أن يصبح هذا الشعب في الحالة التي هو عليها اليوم. فلماذا كان الشعب المغربي مستعمرا من طرف أوربا ؟ ولماذا لم يستعمر المغرب الأوربيين؟

لابد من إجابات لمثل هذه الأسئلة حتى لا يبقى المغرب دائما تابعا وخاضعا للمستعمر الأوربي. هناك مثال : حاول المغرب في القرن 19 إصلاح نظمه لمواجهة التدخل الأوربي، وانتهت هذه المحاولة بالفشل لذا يجب فهم أسباب هذا الفشل خاصة والمغاربة الآن بصدد تجديد مجتمعهم، وذلك لتجنب السقوط في نفس الأخطاء التي سقط فيها المغاربة في القرن 19. إذن لابد أن نرجع الى الماضي وندرس ما وقع لتفادي الوقوع فيما وقعنا فيه خلال القون 19 مرة ثانية. وبالتالي فالماضي هو مدرسة لإرشاد المجتمع والعمل الجماعي قصد الخروج من دائرة الورطة التي كان فيها المغرب قبل الاستقلال.

عن البرنامج التلفزيوني «بصمات» (1985)
الذي كان يعده ويقدمه : المرحوم محمد الركاب وفاضل يوسف وفرتات التيجانية ومصطفى المسناوي.